الحمام الزاجل

للأستاذ أحمد رمزي بك

في الحروب الحديثة :

يعتمد فن تحريك الوحدات الكبرى وسوقها للقتال على شبكة من طرق الاتصال أصبحت بعد استعمال الراديو بأصنافه مع التلفون المادي والتلغراف عملا من أدق وأصعب الأعمال لضبط المخابرات ونقل المعلومات وتوجيه الأوامر ، وتصبح هذه الآلة المحكمة التنظيم عرضة للوقوف والتعطيل إذا اشتبكت الوحدات العسكرية في معركة حاسمة ، إذ هنا تفرض الحرب نوعاً من المفاجآت قد تعطل كل ما أنتجه العقل البشري من مخترعات: ويبرز الحمام الزاجل كواسطة لنقل المعلومات لا يمكن إغفالها .

نعم إن الحرب الحديثة ، الخاطفة أو الثابتة أمام الحصون ، الزاحفة أو المتراصة ، الهجومية أو الدفاعية بأصنافها المختلفة ، تخلق أحياناً من الظروف الطارئة ما يشل عمل هذه الوسائل المستحدثة التي أوجدها العلم والتي يستطيع العلم وحده أن يبطل أثرها ، فيحتم على المقاتلة العود إلى استعمال أساليب القدماء التي خيل إلينا أننا تركناها ومن بينها الحمام الزاجل الذي قد يصبح الوسيلة الوحيدة التي نتمكن بواسطتها من إنفاذ موقع محاصر أو نقل رسالة هامة يتوقف عليها مصير جيش من الجيوش أو نتيجة معركة ناشبة .

نظام في الجيوش :

لذلك أصبح للحمام الزاجل أنظمة محكمة في جيوش العالم ؛ فقد رأيت في الحروب الماضية والحرب الأخيرة عدة أبراج متنقلة للحمام مركبة على السيارات ، وعرفت أن كل برج منها يحوي مجموعة من الحمام تقرب من المائة وأنها مقسمة ثلاثة أسراب :

سرب غائب ، وآخر يستريح ، وثالث كاحتياطي . وكانت مهام كل سرب توزع على ثمانية مراكز أو تسعة يراعى في ترتيبها أن تكون على صف واحد بين الأبراج وتتناوب الحمائم الانتقال والتمرين عليها لنقل الرسائل .

ويقوم على خدمة الحمام جنود مدربون لهم صبر على تر وسران على تعليمه والاستفادة منه . والحمام الزاجل أليف يـ تعويده وتدريبه على الرحلات ما دامت الأبراج ثابتة ، أما تحركت وثبتت الوحدات في تنقلاتها احتاج الأمر إلى استخدا نوع من الحمام المدرب الذي اعتاد اكتشاف طريق برجه تغير موقعه . وهذا النوع من الحمام إذا رُبي وأحسن تد يكتشف أبراجه في دائرة قطرها عشرون كيلومتراً مهما تـ أو تغير موقع الأبراج .

وتعلق الجيوش كما قلنا أهمية خاصة على هذا النوع ا من الحمام لأنها تعتمد عليه في إنقاذ حالات لا تجدي فيها الوسـ المادية ؛ إذ يرجع إليه الفضل في الحربين العالميتين الأولى والـ ووسط قوات متحاربة تملك غاية ما أوجده العقل البشري وسائل الاتصال ، يرجع إليه الفضل في تغيير خطة عسكر تقديم موعد هجوم حاسم أو تأجيله . وكم من وحدات انقذ عنها النجدات وتعذر عليها استعمال اللاسلكي لئلا تفضح أما تجمعها ، أنقذها الحمام الزاجل ! !

الحمام الزاجل في الجيوش الإسلامية :

ويعتبر استعمال الحمام الزاجل من وسائل المخابرات التي أمرها في أنظمة الجيوش الإسلامية وخصوصاً في مصر استقلالها ؛ إذ كانت لها اليد الطولى في هذا المضمار : وكانت القاهرة المحروسة مركز الإرسال والوصول للمكاتبات التي يـ الحمام الزاجل : وكان يربى في أبراجها نوع ممتاز من الحمـ عليه اسم الرسائلي لاتخاذه من قصيلة أعدت لحمل الرسائل السـ التي كانت توضع في داخل أنابيب من المعدن الخفيف أو في أكياس من الحرير .

وتفنن كتاب ديوان الإنشاء بقلعة مصر في أسلوب الرسائل وبلاغتها وجعلها في منتهى الاختصار لنقل ما يريدون إيصاله من المعاني ، بل حرصوا على اختيار نوع ا الذي يكتبون عليه رسائلهم ليخف وزنه على الطائر .

وانتهى بهم الذوق إلى إكرام الحمام الناقل للبشرى : السلاطين أو الحمام الحامل لأنباء الظفر والانتصارات في الـ

فكانوا يطوقون جوانبه بالمسك والعنبر والروائح العطرية ، كما كانوا يتعمدون طلاءه بالسواد إذا نقل أخبار الهزائم والوفاة .

حوادث في التاريخ الإسلامي :

حينما هوجمت مصر مرتين من الشمال بالجيوش الصليبية الأولى أيام السلطان الملك الكامل بن العادل الأيوبي ، والثانية أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهي حوادث أفزعت العالم الإسلامي ، كانت أسراب الحمام الزاجل تنقل أخبار المعارك وشدتها فيقع كل طائر منها على أبراج القلعة وهو مجلل بالسواد دليلا على حمله للأخبار السيئة التي يعانيها المسلمون في دمياط وميادين القتال .

وكانت القاهرة تقوم لها وتقعد ويكثر الابتهال إلى الله إذ يهرع الناس إلى المساجد لإقامة الصلوات .

ولما انتصر المصريون وأسر ملك مصر نزل الحمام الزاجل على أبراج القلعة مطوقاً بالعطر والمسك والزعفران ينقل بشرى زوال المحن والمصائب وأنباء الانتصارات الحاسمة المتتالية : هذا ما سجله التاريخ للحمام الزاجل .

ويظهر أن الإفرنج كانوا يجهلون أمر هذا الحمام بدليل ما ورد في تاريخ حصارهم لمدينة القدس قبل فتحها ؛ فقد بعث قائد القوات المصرية المحاصرة — وكانت من جنود الدولة الفاطمية — طائراً لنقل أخباره إلى خارج المدينة فلم يلتفت إليها الإفرنج لولا أن جاء من أعلمهم بأن الطير ينقل الأخبار فتربصوا به وأطلقوا النشاب عليه فأصابوا الطير ، ولما وقع عثروا على القصاصة المراد إرسالها فتنبهوا إلى خطورته ، وضيقوا الحصار على المدينة حتى فتحوها .

الحمام الزاجل وآل سلجوق

كانت دولة آل سلجوق من أعظم دول الأرض ، وكان الحمام الزاجل معروفاً قبلها ، ولكن في عهدها أدخلت أنظمة شبكات الخطوط الرسائلية في أنحاء هذه الامبراطورية المترامية الأطراف ؛ فإليها يرجع الفضل في جعل تربية الحمام وتنظيم استعماله فناً من الفنون اللازمة للدولة . وهذا كغيره من مستحدثات السلاجقة الذين لهم الأيادي التي لا تزال خافية . وعنهم أخذ نور الدين الشهيد بن زنكي هذا النظام السلجوقي فأحكم أمره في الشام ثم انتقل إلى آل أيوب فكانوا أول من أتقنه وأحكمه بأبراجه وأمرائه في مصر ثم بلغ منتهاه في العصور التالية

تربيته وتدريبه والعناية به

أفتن القدماء بالحمام الزاجل بعد أن رأوا نفعه ، فأصبحت لهم دراية بتربيته وتدريبه والعناية به ، وكانوا يقسمونه على حسب لونه وعدد الرياش المعتبرة في الأجنحة والأذناب ، وفرقوا بين الذكر والأنثى ؛ فجعلوا لكل عملا خاصاً به ، وصنفوا الطير ، فميزوا بالفراسة ما لمسوا نجابته من صغره ، واختاروا الزمان والمكان الملائمين للافراخ ، وهي أمور لم تصل إليها الجيوش الحديثة التي تربي الحمام الزاجل الآن .

ويبالغ المؤرخون فينسبون إلى أن القدماء جعلوا للطير أنساباً كأنساب الخيل ، وألفوا الكتب فيها وفي أعمال الحمام الزاجل وبطولته ، فنسبوا إلى خلفاء العباسيين والفاطميين أنهم دفعوا أثماناً باهظة ثمناً له ، وأن ملوك الروم كانوا يتنافسونهم في ذلك . فمن قبيل المبالغات أن الحمام المصري بدمشق نقل بعض أنواع الفاكهة النادرة في الشام لمصر أيام العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين ، أو ما ذكروه عن الطير الذي قطع المسافة بين القسطنطينية وبغداد مرة واحدة ؛ إذ يندر أن تعرف الحمامة أماكنها إذ زادت المسافة عن عدد معلوم من الكيلومترات قلما يتعدى العشرين أو الثلاثين ؛ كما أن سرعة سفرها محدودة ومعلومة فلا يصح أن ينسب إلى الطير ما لا يصدقه العقل .

نظام الفرسان في نقل الرسائل :

قلنا إن الدولة السلجوقية هي التي أتقنت نظام شبكات الحمام الزاجل لأحكام طرق الاتصال ونقل المخابرات بأسرع الطرق ، وكانت الدولة المصرية في العصور الإسلامية قوية الجانب تحكم مساحات واسعة من أراضي آسيا تمتد على نهر الفرات وتصل أحياناً إلى دجلة ، وكانت تسيطر في الشمال على منطقة عسكرية تحيط بها القلاع والمدن المحصنة . فكان من أول ما اهتمت به الدولة إحكام المخابرات مع هذه المناطق فاستعملت طرق البريد السريعة وإيفاد النيران لنقل الإشارات بين القلاع وبعضها ثم أحكمت نظام الحمام الزاجل .

ويعود الفضل في تنظيم المخابرات وثاق الحمام الرسائلي إلى شبكة الأبراج ومحطات الإرسال المنشأة بين العاصمة والأماكن